

جمعية العلماء المسلمين الجزائريين
السياق التاريخي و المرجعية الفكرية

Association of Algerian Muslim Scholars
Historical Context and Intellectual Référence

الاسم الكامل للباحث الثاني

مؤسسة الانتماء،

مخبر الانتماء

Email

مصطفى دحمانى أستاذ محاضر أ

كلية العلوم الإنسانية و الإجتماعية/جامعة طاهري

محمد /بشار

Mustapha.dahmani@univ-bechar.dz

تاريخ القبول: ١٠/١٨ / ٢٠٢٥

تاريخ الاستلام ٢٤/٠٨/٢٠٢٥

تاريخ النشر ١١/١٢/٢٠٢٥

ملخص:

هدفت هذه الدراسة إلى التعرف على الظرفية التاريخية التي نشأت فيها جمعية العلماء المسلمين الجزائريين ١٩٣١ من جهة، و إلى الكشف عن الإطار المرجعي و الفكري و بعبارة أدق الخطاب الإيديولوجي لزعماء الإصلاح في الجزائر من جهة أخرى، انطلاقا من سؤالين/إشكاليين هما : كيف كانت الظرفية التاريخية التي نشأت فيها؟ و من أين استمدت جمعية العلماء أفكارها و مواقفها الإصلاحية؟ و قد اتبعنا في هذه الدراسة خطوات المنهج التاريخي/الوصفي، التحليلي، كما استخدمنا في جميع مفاصل البحث أدوات الحفر و التنقيب في التاريخ الممتد في الثلاثة عقود الأولى من القرن العشرين، وذلك لفهم آليات و محددات الخطاب الإيديولوجي لرواد النهضة الفكرية. أما الفرضية الأساسية التي نتحرك في إطارها فهي أن تأسيس الجمعية لم تنشأ عبثا و لم تتحرك و تنشط بدون هدف استراتيجي، هو الدفاع و حماية الهوية العربية الإسلامية. و الفكرة التي نخلص إليها هي أن أية قراءة لخطاب و مواقف جمعية العلماء الدينية و السياسية، لا بد أن تأخذ في الاعتبار السياق التاريخي وإيديولوجيا الإصلاح. الكلمات المفتاحية: : جمعية العلماء، الإصلاح، التاريخ، الخطاب، الإيديولوجيا.

Abstract :

This study aimed to identify the historical context in which the Association of Algerian Muslim Scholars was established in 1931, on the one hand, and to uncover the frame of référence and intellectual framework, and more precisely, the ideological discourse of the reform leaders in Algeria, on the other. This study is based on two questions: What was the historical context in which it was established?

And where did the Association of Algerian Scholars derive its reformist ideas and positions?

In this study, we followed the steps of the historical/descriptive and analytical approach. We also employed, throughout all aspects of the research, tools of excavation and investigation into the history spanning the first three decades of the twentieth century to understand the mechanisms and determinants of the ideological discourse of the pioneers of the intellectual renaissance. The basic hypothesis within which we proceed is that the association was not founded in vain, nor did it operate without a strategic goal: defending and protecting the Arab-Islamic identity. The idea we conclude is that any reading of the religious and political discourse and positions of the Association of Algerian Scholars must take into account the historical context and the ideology of reform.

KeyWords: Association of Scholars, Reform, History, Discourse, Ideology.

المقدمة

لا شك فيه أن تأسيس جمعية العلماء المسلمين الجزائريين، عام ١٩٣١ هو حدث بارز و مفصلي في تاريخ الجزائر المعاصرة، بالنظر إلى المهام الصعبة و الشاقة التي كانت تنتظر زعماء الإصلاح في الجزائر على مستوى الجبهة الثقافية، و ذلك بعد مرور قرن على الوجود الإستعماري الذي عمل على تفكيك ليس فقط البنى الاقتصادية و السياسية، بل البنى الثقافية و الاجتماعية.

و هذه الدراسة هي محاولة لفهم و معرفة و تحديد السياق التاريخي وبعبارة أدق معرفة الظرفية التاريخية و بعبارة أخرى تلك التحولات الفكرية و التطورات الجيوسياسية و الأحداث السياسية/الاجتماعية و الوقائع الثقافية و الأزمات الاقتصادية العالمية خاصة أزمة النظام الرأسمالي عام ١٩٢٩، على المستوى الوطني و المغاربي و العربي و العالمي، و هي أحداث عاصفة اختلط فيها الاستعمار و الإمبريالية و الثورات العالمية و حركات التحرر و انتشار المد الاشتراكي و الشيوعي، بالإضافة إلى النهضة الفكرية و الأدبية و تطور ورواج الصحافة و الحركة الإصلاحية في المشرق العربي حيث عاش علماء و شيوخ الجزائر ردحا من الزمن هناك، كل هذه الأحداث و التحولات ساهمت و أدت إلى ذلك الإجتماع التاريخي في نادي الترقى بالجزائر العاصمة و الذي حضره عدد غفير من الشيوخ و العلماء و الأئمة من كل ربوع الجزائر.

هذا من جهة و من جهة ثانية، هذه الدراسة تسعى للقبض على المرجعية الفكرية و التي رسمت الخطوط العريضة لخطاب جمعية العلماء الايديولوجي و السياسي و بمعنى أصح نبغي الكشف عن المرجعية الفكرية للخطاب الإصلاحي لجمعية العلماء.

و من هنا كان السؤال الإشكالي: ما هي الظرفية التاريخية التي نشأت فيها، و من أين استمدت جمعية العلماء أفكارها و مواقفها و خطابها الإصلاحي.

I. من المقاومة المسلحة إلى المقاومة السياسية

الجزائر هي أول بلد عربي إسلامي وقع تحت سيطرة الاستعمار الأوروبي _العربي في عام ١٩٣٠، وكان هذا الإحتلال بمثابة البداية الحقيقية لما يسمى بالاختراق الأوروبي للعالم العربي _الإسلامي بشكل سافر و بنية مبيتة هي الاستيلاء على الأرض و تهجير السكان الأصليين و القضاء على الشخصية الوطنية و محو مقومات الهوية العربية - الإسلامية.

و لا نبالغ إذا قلنا أن التاريخ الحديث لم يعرف مأساة استعمارية كمأساة إستعمار الجزائر ، كما أن الإنسان المعاصر لم يواجه أزمة إنسانية تهزه من الأعماق و تتحداه كالأزمة التي تعرضت لها الجزائر ، خاصة إن الاستعمار الفرنسي لم يكتف بإحتلال الأرض و سلب الثروات و نهب الخيرات ، و إنما حاول طمس معالمها القومية و سلب ثقافتها و لغتا و طمس هويتها الشخصية (عبد القار جفلول، ١٩٨٣، ص ٧) و لسنا في حاجة إلى شرح كبير للقول بأن الاستعمار الفرنسي في الجزائر كان- إن صح هذا التعبير- من أبشع أشكال الاستعمار و من أعنف أنواع الإحتلال التي تعرضت لها المنطقة العربية ، لا يضاهيه قساوة و عنفا و ضراوة إلا الإحتلال الصهيوني لأرض فلسطين.

الحقيقة أن الغزاة الفرنسيون إستهدفوا منذ أن وطئت أقدامهم ساحل سيدي فرج، الأرض في المرحلة الأولى، أما في المرحلة الثانية فكان الإنسان هو المُستهدف، و بتعبير فصيح أراد الغزاة الإستيلاء على الأرض و مسح العرض .

و لهذا كان تركيز السلطات الإستعمارية طيلة سبعين سنة من الإحتلال (١٨٣٠-١٩٠٠) على سياسة الإستيطان أولاً ، و ثانيا مسح الهوية الوطنية و تذويب الشخصية العربية /الإسلامية، بأبعادها المختلفة و المتعددة و بمكوناتها الأساسية الثلاث، الإسلامية، العربية و الأمازيغية.

و بالرغم من قوة الغزاة عددا و عدة، عسكريا و تنظيميا، إلا أن المقاومة الوطنية لم تتوقف لحظة واحدة و ، منذ الأيام الأولى الذي نزل فيه الجنود الأوروبيون مدينة سيد فرج، و استمرت عملية صد الغزاة حتى مطلع القرن العشرين، في البداية إندلعت المقاومة المُسلحة و تواصلت بأشكال مختلفة طيلة و في مناطق متعددة، أكثر من نصف قرن، بالرغم من عدم تكافؤ القوة الرهيب ، فقد كانت فرنسا في القرن التاسع عشر دولة رأسمالية، دولة حديثة أي حققت ما يسمى بالدولة- الأمة.

و هنا لا بد من الإشارة إلى المقاومات التي أعلنت عن نفسها منذ بداية الإحتلال عام ١٨٣٠ أي منذ حملات

الجنرال بوجو الوحشية و أسلوبه الفاشي، و نخص بالذكر مقاومة الأمير عبد القادر التي تمتد من سنة ١٨٣٣ حتى سنة ١٨٤٧ و مقاومة الشيخ الحداد و مقاومات لا لافاطمة نسومر في منطقة القبائل و أحمد باي في الشرق و الشيخ بوعمامة في الجنوب الغربي، و لا ننسى كذلك ثورة الزعاطشة في الجنوب الشرقي، و غيرها من المقاومات و الثورات و الإنتفاضات التي لم تهدأ و التي و إن اختلفت في المكان و الزمان، إلا أنها اشتركت في هدف واحد هو مقاومة الاحتلال و دحر الغزاة، و بكل الطرق المتاحة و مختلف الوسائل الممكنة و مهما كان الثمن.

خلاصة القول أن المقاومة كانت متعددة الأشكال و مختلفة في الزمان و المكان و بدون توقف. و لأسباب شتى، فشلت هذه المقاومة المسلحة و وصلت إلى طريق مسدود في نهاية القرن التاسع عشر، فاسحة المجال لنوع آخر من المقاومة، هي المقاومة السياسية التي كانت تسير جنباً إلى جنب المقاومة الثقافية، و بعبارة أخرى تغير شكل المواجهة مع بداية القرن العشرين، لتأخذ شكل الكفاح المدني و النضال السلمي و تنتهج تكتيك العمل السياسي و الحراك الجمعي و النشاط الأهلي من خلال الجمعيات و النقابات، و في داخل و في إطار ما كان يسمح به النظام الكولونيالي.

و لهذا كان الشبان الجزائريون و النخبة الوطنية تطالب فقط بالمساواة في الحقوق و الواجبات بين " الأهالي " - les indigènes - المسلمين و بين المعمرين - colons - الأوروبيين، و الأهم من ذلك و في خضم هذا النضال السياسي /السلمي، العمل على الحفاظ على الشخصية العربية الإسلامية و كل مقومات الهوية الوطنية الثقافية و الحضارية للمجتمع بكل فئاته و شرائحه و طبقاته، أو بالأحرى ما بقي من طبقاته، بعد أن دمر الإستعمار الطبقة " الأرستقراطية" و فكك البنى الثقافية و شتت شمل النخبة السياسية التي كانت موجودة قبل عام ١٨٣٠.

و غني عن البيان القول أن التشكيلات السياسية/ المدنية التي تكونت في بداية القرن العشرين، كانت تعمل فقط على مد جسور التلاقي مع التراث الثقافي الوطني، أي مع الثقافة الجزائرية المحلية و في نفس الوقت السعي للتواصل مع العصر و الحداثة الحضارة المعاصرة.

و من هذه الزاوية نشأت مشكلات الثقافة و الفكر و السياسة و طرحت بحدة قضايا الوطن و الإنتماء و طفت على السطح أزمة مازلنا نعاني منها حتى اليوم هي أزمة الهوية، مشكلة الأنا و الآخر، الأهالي و المعمرين، المسلمون

و المسيحيون، الحداثة و التقليد، حيث طرح سؤال الهوية، الإسلام و الغرب، الحداثة و التقليد و طرح بحدة سؤال الإمة و الدولة و الدين، سؤال من نحن و من الآخر و الجدير بالذكر أن جمعية العلماء حاربت الطرقية و الزوايا و التصوف بلا هوادة، أقول الطرقية كما شكلها الإستعمار و حدد لها مهامها و وظيفها لخدمة أهدافه الإستعمارية . و بالمناسبة لو لا وجود الآخر و هو هنا المعمرون/الأوروبيون/المسيحيون الذين يحتلون الأرض و يهددون الشخصية الوطنية بالتبشير و الغربنة و المسخ، و من هذه الزاوية طرحت مسألة الهوية و بهذه الحدة . و لقد بات معروفا لدى الباحثين الموقف الراديكالي لجمعية العلماء ، من مسألة الإدماج - assimilation - و التجنيس - naturalisation - أي منح الجنسية الفرنسية، حيث رفضت رفضا تاما مسألة تجنيس الجزائريين و مهما كان عدد الذين سوف يُجنسون، قليلا أم كثيرا، فالتجنيس بالنسبة للجمعية صفقة سياسية خاسرة و مس بالهوية خطير (Addi lahouri.1990.p31)،

و الحقيقة التي لا تحتاج إلى نقاش أن جمعية العلماء المسلمين الجزائريين هي أول جماعة وطنية منظمة، نبّهت إلى قضية الهوية الوطنية بشكل واضح ، و من هنا حازت على مكانة خاصة في الحركة الوطنية و في أوساط الشعب الجزائري و في الزمن الصعب .

و من البديهي القول أن التاريخ قد سجّل بأن العلماء قد لعبوا دورا كبيرا في تشكّل جبهة المقاومة الثقافية في إطار الجماعة الوطنية ، رغم أنهم لم يقتربوا من كلمة إستقلال - indépendance - و لم يتطرقوا في أدبياتهم و في خطابهم و حتى في خطبهم إلى التناقض الرئيس و هي المسألة الوطنية، مسألة الاستعمار بشكل واضح و صريح (Addi lahouri.1990.p31)

و تفاديا لأي صدام مع الإدارة الإستعمارية، فقد سجلوا في القانون الأساسي للجمعية منع أي نشاط سياسي أو كلام في السياسة و كذلك كل تدخل في أية مسألة سياسية داخل نطاق الجمعية، و بعبارة أفصح فصلوا بين العمل التربوي/الثقافي و العمل الحزبي/السياسي، بين الديني و السياسي (حسين عبد الرحمن سلوادي، ١٩٨٤ ، ص ٢٤) .

و مما لا شك فيه أن جمعية العلماء التي أسسها الشيخ عبد الحميد بن باديس (١٨٨٩ - ١٩٤٠) رفقة ثلة من زملائه و التي رفعت شعار " الجزائر وطننا ، و الإسلام ديننا و العربية لغتنا " عاليًا أعلنت بأنها جمعية وطنية تحمل رسالة دينية، هدفها الحفاظ على الدين الإسلامي و تعليم اللغة العربية و منهجها هو تكريس القيم و المبادئ

الروحية و الأخلاقية التي جاء بها هذا الدين الحنيف، كما كانت تسعى إلى العودة إلى الإسلام الأول، إسلام النبوة و الخلفاء الراشدين و العودة كذلك إلى الأصول الثقافية المحلية و إحيائها (محمد خير الدين، ١٩٨٩، ص ١٢٧).

و بالتالي فإن شيوخ و علماء و أئمة الجزائر، التأم جمعهم في نادي الترقى بهدف واحد هو الدفاع و الحفاظ و حراسة ركائز الهوية العربية/الإسلامية الثلاث، و التي كما لخصها أحد أعضاء الجمعية كما، بأنها تتجسد في إحياء الإسلام بإحياء القرآن و السنة و في إحياء اللغة العربية و أدابها، و في إحياء التاريخ الإسلامي و آثاره و أعلامه و رموزه (عبد الكريم بو الصفصاف، ١٩٩٦، ص ١٣٦).

و الجدير بالذكر أن جمعية العلماء كانت تلعب في ميدان الوعي و كانت تخوض معركة الوعي و نحن نعرف أن معركة الوعي هي أم المعارك، و في هذا الصدد فقد ذكرت جريدة " الشَّهَاب " و قد كانت لسان حال الجمعية، أن أهداف الجمعية تتمثل، أولاً في إيقاظ الجزائريين من نومهم لكي يطالبوا بحقوقهم و يأخذوا مكانهم في الحياة الكريمة، و ثانياً في تخليص الدين من الخرافات و الخزعبلات و الشعوذة التي عششت في الممارسة الدينية و في ركن من أركان المجتمع في تلك الحقبة، و ثالثاً في تجديد الخطاب الديني و إصلاح الإجتماعية.

و من هنا انصبت الجهود الجبارة التي بذلها العلماء لنفض الغبار عن الجمود الفكري و ذلك بتعليم اللغة العربية و تحفيظ القرآن الكريم، و بمكافحة الطرقية، بل و في شن حرب شعواء ضد " إسلام الزوايا " و ضد التصوف الذي تم استخدامه و توظيفه لخدمة سياسات الإدارة الاستعمارية بعد أن كانت الروابط و الزوايا في مقدمة المقاومة المسلحة و طليعة الدفاع و حماية الدين و نشر الإسلام في إفريقيا و العض بالنواخذ على اللغة في القرن التاسع عشر (عبد الكريم بو الصفصاف، ١٩٩٦، ص ٩٩).

و مما لا شك فيه أن جمعية العلماء الجزائريين ذات الطابع الديني /المديني، و بعبارة أخرى إسلام المدينة، و التي تأسست في ٠٥ ماي عام ١٩٣١ في الجزائر العاصمة و بالضبط في نادي الترقى، قد لعبت دور المدافع في الحركة الوطنية و اختارت الجبهة الثقافية و من هذه الزاوية خاضت عدة معارك للحفاظ على الهوية من كافة أشكال المسخ و الذوبان و التغريب كما تأسست دفاعاً عن القيم الحضارية و التاريخية و الدينية و اللغوية و لا غرو أن تحتل هذه الجمعية الإصلاحية مكانة خاصة في الحركة الوطنية الجزائرية، بسبب دور العلماء الفعّال في معركة الوعي، و بالفعل لقد ساهم العلماء في تشكيل الحركة الوطنية بطريقتهم حاسمة، رغم ترددهم في

نطق كلمة إستقلال أو وضع المطالبة بالإستقلال ضمن أهداف الجمعية.

و لسنا بحاجة إلى شرح كبير للقول بأن هؤلاء العلماء كانت تجمعهم مهمة ثقافية/دينية بالدرجة الأولى و كانت تحكم حركتهم تكتيك سياسي، لكن هذا لم يمنع دخول العلماء في نقاشات سياسية في قضايا من قبيل الدفاع عن كيان جزائري على الثقافة العربية و فكرة الكيان الجزائري قد طرحها الشيخ عبد الحميد ابن باديس في عقد الثلاثينيات من خلال مناقشات مع الإدارة الاستعمارية و في كذلك الدخول في تحالفات مع القوى السياسية الوطنية الموجودة آنذاك ، و لا ننسى مشاركتهم الفعالة في المؤتمر الإسلامي المنعقد سنة ١٩٣٦ .

و بطبيعة الحال لم تكن مهمة الدفاع و الحماية سهلة، بالنظر إلى عمليات التدمير الثقافي و الطمس الهوياتي و التفكيك الاجتماعي/الاقتصادي(عدي الهواري، ١٩٨٣، ص ١٣٤) المُمْنَهْجَة التي أحدثها الاستعمار الاستيطاني في مكونات النسيج الاجتماعي و في مكونات و أبعاد الشخصية الوطنية.

في الواقع، إن أهم ما أدى إليه الاحتلال هو إحداث نوعين من القطيعة في حياة المجتمع الجزائري، قطيعة مع الماضي أي مع الثقافة المحلية و قيمها، و منه نشأت مشكلة الهوية و الذاتية، و تتجسد القطيعة الأولى في محو الشخصية المحلية و زرع البلبلة و التناقض في رؤية الجماعة لنفسها و استمرارية وجودها، و تتجسد القطيعة الثانية في تهميش الجماعة بالنسبة للعصر و تحويلها إلى مناطق ثانوية لا قدرة لها على التحكم بمصيرها المادي أو السياسي أو الانساني(برهان غليون، ١٩٩٠، ص ١٥٢-١٥١).

و بالتالي وضع المجتمع الجزائري خارج التاريخ و كسر إرادته و نزع روح المبادرة من بين يديه أي جعله مجتمع لا تاريخي، بمعنى تجميد المجتمع و تجهيله و سلبه القدرة على التكيف مع ظروف العصر، بحيث يصبح مجتمع بلا فاعلية و عاجز عن التكيف مع العصر (برهان غليون، ١٩٩٠، ص ١٥٢)

و في حقبة زمنية تمتد من عام ١٨٣٠ حتى عام ١٩٣٠، و هي حقبة زمنية نعتقد أنها طويلة و كافية لأي غاز أو محتل أو دخيل، متفوق عددا و عدة، أقول الوقت كاف لزراعة الشخصية الوطنية أي شعب من الشعوب، و هذا ما تبادر إلى ذهن المعمرين الأوروبيين، إذ أقاموا في تلك السنة إحتفالات كبرى بمناسبة الذكرى المئوية الأولى للاحتلال(أبو القاسم سعد الله ١٩٨٦ ص ١٦)، على أساس أن أرض الجزائر أصبحت نهائياً جزءاً لا يتجزأ من أراضي الأمبراطورية الفرنسية ؟

و لكن سنة بعد ذلك، سيأتي الرد المناسب على هذه الإحتفالات المدوية، المُستفزة، إذ سيتم تأسيس جمعية

العلماء المسلمين الجزائريين للقيام بمهمة صعبة لكن ليست مستحيلة، هي الصمود و التصدي في الجبهة الثقافية، و التمركز في خندق حماية الهوية الوطنية. و لهذا نرى من الضروري، أن نتوقف عند الظرفية التاريخية التي ولدت فيها جمعية العلماء أولا و من ثمة نرصد المرجعية الفكرية التي إستمدت منها جمعية العلماء أفكارهم ومواقفهم التي رسمت الخطوط العريضة لخطابهم السياسي و موقفهم الإيديولوجي ثانيا.

I. من المقاومة المسلحة إلى المقاومة السياسية

كانت سنوات العشرينات من القرن العشرين تغلي بالأحداث التاريخية، فهي السنة التي أعقبت الحرب العالمية الأولى، و بالتالي كانت الترتيبات الجيو _ سياسية و السياسية،جارية على قدم و ساق خاصة بعد دخول الولايات المتحدة الأمريكية الساحة الدولية لأول مرة بعد عزلة طويلة،من خلال مشاركتها الفعّالة في الحرب العالمية الأولى. و من الطبيعي أن تتسرب إلى جميع الدول العالم المُستعمرة مبادئ الرئيس الأمريكي وودرو ولسون Wilson الأربعة عشر و خاصة مبدأ تقرير المصير و تجدر الإشارة إلى فشو الأفكار الديمقراطية و الإيديولوجية الليبرالية، كما كانت الثورة الروسية بأحداثها المتتابة منذ إندلاعها عام ١٩١٧ تهز العالم و تأخذ حيزا هاما من صفحات الجرائد العالمية آنذاك، و منه بدأت أفكار الثورة على النظام الرأسمالي/ الإمبريالي/ الاستعماري تشيع بين جميع الحركات الوطنية و تفشو و تسود بين الشعوب و الأمم و المجتمعات، بل و إنتشرت رائحة الثورة في كل بقاع العالم بما فيها منطقة الشمال الإفريقي.

و من الأحداث البارزة في المنطقة العربية،ثورة عبد الكريم الخطابي (١٨٨٢ - ١٩٦٣) في منطقة الريف المغربي ضد الاحتلال المزدوج الاسباني/الفرنسي و قد امتدت هذه الثورة حتى عام ١٩٢٦ و من المعروف تاريخيا أن عبد الكريم الخطابي قد نادى جميع أهل المغرب ليشاركوه في تحرير المنطقة كلها(أبو القاسم سعد الله . ١٩٨٦ ص ٣٣٠)

و الجدير بالذكر أن هذا البطل المغاربي/ الأمازيغي هو أول من استخدم عبارة المغرب العربي،أما في تونس فقد كانت الحركة الوطنية قد بلغت النضج في نهاية العشرينات..بكافة أجنحتها السياسية و الاجتماعية و العمالية في

محااربة الاستعمار سياسيا و حتى عسكريا فيما بعد.و في الجهة الشرقية من الوطن العربي كانت الحرب الفاشية الايطالية ضد الشعب الليبي قد تجاوزت كل الحدود في البطش و التنكيل،رغم المقاومة الباسلة التي قادها المجاهد عمر المختار. و في المشرق العربي كان عصر الكفاح من أجل الإستقلال و الحرية الذي جسده ثورات عام ١٩١٩ في مصر و ثورة العشرين في سوريا و العراق و التي إمتد تأثيرها إلى مجمل أقاليم الجزيرة العربية،و هو العصر الذي بدأ بالتمرد على الحكم العثماني عام ١٩١٦،ثم جاءت ثورة الشعب المصري عام ١٩١٩ في المطالبة بالإستقلال و الدستور و في رفض الوصاية و الانتداب، و في نفس العام دعا قادة سوريون إلى المؤتمر الوطني الذي انعقد في مارس ١٩٢٠ بإعلان إستقلال سوريا،و في جوان إندلعت ثورة العراق المسماة بثورة العشرين،و كل هذه الحركات و الإنتفاضات في الشام و الحجاز و العراق عُرفت بالثورة العربية الكبرى،و هي ثورة مُسلحة بقيادة الشريف حسين ضد الدولة العثمانية و التي بدأت في الحجاز و إمتدت إلى الشام،و في شهر فيفري من عام ١٩٢٢ تعلن بريطانيا إستقلال مصر من طرف واحد، و في مارس ١٩٢٥ تقصف فرنسا العاصمة السورية دمشق، و في أوت ١٩٢٩ وقعت حادثة حائط المبكى في القدس،أما في جوان ١٩٣٠ فقد تم التوقيع على معاهدة إنهاء الانتداب و إعلان الاستقلال بين العراق و بريطانيا.

و لا يتوقف الأمر عند هذا الحد،ففي العشرينات كذلك بدأت تلوح في الأفق ملامح الإيديولوجيا العربية المعاصرة، فمن جهة كانت إرهابات الحركة القومية العربية خاصة في سوريا و العراق التي كانت تنطلق من تصور إيديولوجي و هو أنه لا حل للأمة العربية من المحيط إلى الخليج إلا بالوحدة و التضامن بين الشعوب العربية،و من جهة أخرى كانت تتشكل الحركات الإسلامية المعاصرة خاصة في مصر مع تأسيس جماعة الإخوان المسلمين في مدينة الاسماعلية عام ١٩٢٨.

و من المعروف أن نشأة الحركات السياسية/الدينية،هي نتيجة مباشرة لفصل السلطنة عن الخلافة عام ١٩٢٢ و لإلغاء الخلافة الإسلامية السنية عام ١٩٢٤.

و لهذا دعا المفكرون الإسلاميون الإصلاحيون إلى العودة إلى الإسلام المبكر،إسلام الرسول الكريم و الخلفاء الراشدين و الصحابة و السلف الصالح..أي دعوا إلى العودة إلى زمن صدر الإسلام أي الماضي الذهبي. و الحقيقة أن هذا كان الشعار الذي رفعه مفكرو الإسلام في العالم العربي الحديث(فهمي جدعان،٢٠١٤، ص

(١٤) " لا يصلح حاضر الأمة إلا بما صلح به أولها و قد رُفِعَ هذا الشعار بصيغة أخرى هي " الإسلام صالح لكل مكان و زمان "

و نحن نزعم أن الحدث الأبرز في الربع الأول من القرن العشرين هو السقوط المدوي للخلافة العثمانية السنية في مارس ١٩٢٤، إذ أعلن مصطفى كمال عن إلغاء شكل من أشكال الحكم إسمه الخلافة بعد أربعة عشر قرناً من الوجود، أي منذ أن تم تعيين أبو بكر الصديق خليفة على المسلمين في مؤتمر سقيفة بني ساعدة عام ٦٣٢ م. و لا نبالغ إذا قلنا أن عقد العشرينات و كان من أكثر العقود حسماً في تاريخ الجزائر، فقد كانت الحركة الوطنية تخطو خطواتها الأولى على طريق العمل السياسي المنظم مع تأسيس أول منظمة عمالية هي نجم شمال إفريقيا - E.N.A - في ديسمبر عام ١٩٢٤ في باريس، في البداية كانت هذه المنظمة ذات بعد مغربي، ثم تحولت هذه المنظمة فيما بعد إلى حزب جزائري وطني خالص في جانفي ١٩٢٦ برئاسة عبد القادر حاج في البداية، و هو في الأصل تاجر، ينتمي للحزب الشيوعي الفرنسي و ينحدر من مدينة غليزان، ثم تولى الرئاسة و الزعامة السيد مصالي الحاج (١٨٩٨-١٩٧٤) الذي سيدعو صراحة إلى استقلال الجزائر عن فرنسا، و ليس هذا فحسب، بل و إلى بناء جيش وطني، و أيضاً إلى إنشاء برلمان وطني، و حتى إلى تشكيل حكومة وطنية، و بعبارة أدق كان هذا الزعيم الوطني، و هو في الأصل تاجر متنقل، بدون انتماء أيديولوجي/سياسي ينحدر من مدينة تلمسان، أقول كان أول من طرح عل طاولة النقاش السياسي، موضوع الدولة الوطنية في مقابل الدولة الكولونيالية، دولة جزائرية ذات سيادة و كاملة الأركان (Kaddache Mahfoud.1993.p198).

II. الإطار المرجعي.. السلفية /الإصلاحية

و لفهم الدلالة السوسيو- سياسية للإصلاحية الإسلامية الجزائرية و تحديد حدودها المذهبية و إطارها المرجعي، لا بد من العودة إلى الإصلاحية الإسلامية في الشرق الأوسط في الربع الأخير من القرن التاسع عشر و بداية القرن العشرين حيث امتدادها المتأخر في الجزائر.

جمعية العلماء المسلمين الجزائريين، لم تأت من فراغ و أفكارها الإصلاحية لم نشأ من عدم، لأن فكرة إنشاء جمعية للعلماء تعود إلى ما قبل الحرب العالمية الأولى و هي الفترة التي بدأت فيها تتجلى مظاهر تدهور

الأوضاع الجزائرين على جميع الأصعدة اجتماعيا و اقتصاديا وخاصة على الصعيد الثقافي، إذ بات يلاحظ ذوبان الشخصية الوطنية الجزائرية، كما كانت مظاهر التغريب (من الغرب الأوروبي) - **occidentalisation** - لا تخطئها عين، أما علامات الإنحلال الخلقي و التفسخ الاجتماعي، و الانفلات القبلي، فقد كانت بادية للعيان، و عبارة أخرى كان ثلاثي التخلف، الفقر، الجهل و المرض حاضرا و بقوة في أوساط مجتمع "الآهالي" و يكاد يكون غائبا عند المعمرين.

و في هذا الصدد لا بد من الإشارة إلى أسماء بعض العلماء الذين تنبهوا لتلك المعضلة الهويةية (من الهوية) و عملوا بجهد في جبهة الصمود و التصدي الثقافي، مثل ابن سماية و المجاوي و الموهوب، و منذ بداية القرن العشرين كانت هذه الأسماء حاضرة في كل ما يتعلق بأمور الهوية و الثقافة و الشخصية و الوطنية. و في هذه الفترة بالذات (١٩٠٠-١٩١٤) كانت الحركة الإصلاحية في العالم العربي/الإسلامي، قد تحدت معالمها و رؤاها مع ثلة من مفكري الإسلام، على رأسهم محمد عبده (١٨٤٩-١٩٠٥) و رشيد رضا (١٨٦٥-١٩٣٥) و عبد الرحمن الكواكبي (١٨٥٥-١٩٠٢) و قاسم أمين (١٨٤٨-١٩٠٢) الذين انصبت جهودهم و كان شغلهم الشاغل هو، إصلاح الفكر و تجديد الفهم و التوفيق بين الإسلام و العصر، بين الفكر الإسلامي و الدولة الوطنية، بين الشريعة و القانون، بين الفقه و متطلبات العصر (عبد الكريم بو الصفصاف، ١٩٩٦، ص ٣٥).

و لا يخفى على أحد من الباحثين في الفكر الإسلامي التأثير الكبير الذي مارسه الحركة السلفية الوهابية على جميع فصائل و تيارات الحركات الإسلامية المعاصرة و نفس الحكم ينطبق كذلك على أفكار جمال الدين الأفغاني ١٩٣٨- التي لاقت رواجاً كبيراً في حياته و بعد وفاته ١٨٩٨ حيث حاول تلميذه محمد عبده مواصلة نفس العمل الذي بدأه أستاذه لكن بمنهج أصلاحي- تربوي، و من المعروف أن الشيخ محمد عبده قد زار الجزائر سنة ١٩٠٣.

و في إعتقادي التأثير الأكبر على النهضة الفكرية الجزائرية يعود بالدرجة الأولى إلى الشيخ اللبناني/السوري، و الذي كان يقيم في أرض الكنانة محمد رشيد رضا من خلال مجلته الشهيرة في تلك الحقبة " المنار" و يعتبر من تلاميذ الشيخ محمد عبده و خريج المدرسة الإصلاحية قبل الإنقلاب عليها بعد عام ١٩٢٢، عندما تحول من مفكر إصلاحى إلى سلفي متشدد. بل و صريح كما كشف عن خطابه السلفي الذي شكل تراجعا في المنحنى الإصلاحى، و ظهر ذلك جليا في كتابه " الخلافة و الإمامة العظمى " و هو الكتاب الذي يفصل ما بين خطاب الإصلاحية العربية المتصالح مع الدولة الحديثة و الأفكار الليبرالية و خطاب الإسلام السياسي الرافض للدولة الوطنية و لمبادئ الفلسفة السياسية الحديثة .

و الجدير بالذكر أن الذي تبنى أفكار الشيخ محمد رشيد رضا المتشددة و ترجمها في عمل سياسي/دعوي و حركي/ عملي هو تلميذه الشيخ حسن البنا (١٩٠٦-١٩٤٩) عندما أسس جماعة " الإخوان المسلمين " في مدينة الاسماعيلية بمصر عام ١٩٢٨ .

و الحقيقة أن كل ما حدث من نكوص و تراجع و العود القهقري إلى الوراء في خطاب الإصلاحية العربية هو و من تبعات و ردود فعل هي كلها من "توابع" الزلزال المتمثل في القرار الأول القاضي بالفصل بين السلطنة الصادر عام ١٩٢٢ أولا و ثانيا القرار القاضي بإلغاء الخلافة تماما و نهائيا و الصادر عام ١٩٢٤ و هو القرار الذي أعلنه شخصيا مصطفى كمال أتاتورك ، و مباشرة بعد ذلك تم الإعلان عن قيام الجمهورية التركية بحدودها الحالية، أي قيام الدولة الوطنية القومية التركية (و جيه كوثراي، ٩٩٦ ص ٨) .

و من هنا يحق لنا القول أن مركزا الزلزال هو إلغاء الخلافة و قيام الجمهورية و كل ماجرى و حدث من ردود أفعال في العالم العربي / الإسلامي هي تبعات و هزات ارتدادية.

III. الخطاب و الإيديولوجيا

هذا من جهة و من جهة أخرى، فإن الكثير من الشبان الجزائريين المتعلمين تعليما دينيا غادروا الوطن عشية الحرب العالمية الأولى، و إستقروا مؤقتا إما بالمغرب الأقصى أو في تونس، و البعض الآخر هاجر إلى المشرق العربي، و فضل الاستقرار إما في الحجاز أو في الشام ١ أو في أرض الكنانة، نذكر من بين هؤلاء الشيوخ و الإعلام، عبد الحميد ابن باديس (١٨٨٩-١٩٤٠) الرئيس الأول للجمعية، ينحدر من مدينة قسنطينة، و ينتمي لأسرة أرستقراطية ذات تاريخ علمي و عريق و ذات نفوذ سياسي عبر التاريخ، تخرج الشاب عبد الحميد ابن باديس من جامع الزيتونة في تونس عام ١٩١١ ، أما الشيخ البشير الإبراهيمي (١٨٨٩-١٩٦٥) و هو الرئيس الثاني و الأخير للجمعية ينحدر من منطقة سطيف أي منطقة القبائل الصغرى و ينتمي لأسرة ذات جذور ريفية /فلاحية و الطيب العقبي (١٨٨٩-١٩٥٤) .

و من الطبيعي أن يتأثر الإصلاحيون الوطنيون الذين عاشوا في أقطار الشرق العربي ردحا من الزمن بالأفكار الدينية و الإيديولوجيات اللاهوتية ذات الطابع السياسي بالإضافة إلى التصورات الفقهية التي كانت سائدة و مهيمنة ، و خاصة في نجد و الحجاز ، حيث كان التأثير المباشر للحركة السلفية/ الوهابية و لفكرة الجامعة الإسلامية التي نادي بها جمال الدين الأفغاني في نهاية القرن التاسع عشر .

و من المعروف أن الحركة الوهابية هي حركة إصلاحية سلفية ظهرت في الجزيرة العربية، مؤسسها هو محمد بن

عبد الوهاب (-) "باعث الدعوة السلفية و خريج المدرسة الحنبلية" الذي دعا إلى الثورة على الخرافات و الخزعبلات و العودة إلى منابع الصافية للإسلام وبعبارة أفصح العودة إلى الإسلام الأول، إسلام القرآن الكريم و السنة النبوية الشريفة و تقاليد السلف الصالح.. كما كانت تعمل و تدعو و تحث على محاربة الخرافات .

و مما لا شك فيه أن المرجعية الفكرية لكل هذه الدعوات يعود في النهاية إلى شيوخ و أئمة السلفية الكبار و على رأسهم أحمد بن حنبل و أحمد عبد الحليم بن تيمية و بن قيم الجوزية. و بناءا عليه ليس صدفة أن يعلن قادة الجمعية عند عودتهم إلى أرض الوطن الحرب على الطرقية و التصوف و الزوايا أي مكافحة كافة مظاهر التشوهات التي لحقت -من وجهة نظرهم- بالإسلام، على مستوى العقيدة و الشريعة، و على مستوى العبادات و المعاملات ، و سوف يتكرّس هذا الخط الإصلاحى بعد تأسيس الجمعية رسميا يوم ٠٥ ماي ١٩٣١ بالجزائر العاصمة.

و مما لا شك فيه أن الرؤية الإصلاحية، سوف تظهر بصورة جلية في خطب و خطابات و كتابات و منشورات كل من الشيخ عبد الحميد بن باديس و الشيخ البشير الإبراهيمي و الشيخ الطيب العقبي و الشيخ الفضيل الورتلاني و الشيخ محمد خير الدين و غيرهم من الشيوخ و العلماء و الأئمة (عبد المالك مرتاض، ١٩٨٣ ص، ٦١).

IV. الدين و المجتمع و الوطن

و بعد أن وضعت الحرب العالمية الأولى أوزارها عام ١٩١٨ حتى عاد الشيوخ، و كانوا كلهم في ريعان شباب وقتذاك إلى الجزائر، عادوا ليس كما ذهبوا، بل عادوا محملين بأفكار جديدة و بتصورات مختلفة عن الإصلاح في الفكر الديني و التجديد في الخطاب الديني .

و من الضروري أن نشير إلى أشهر الأسماء العائدة إلى أرض الوطن، نذكر الشيوخ و العلماء عبد الحميد ابن باديس و محمد البشير الابراهيمي و الطيب العقبي، و نسجل كذلك عودة المؤرخين الكبيرين أحمد توفيق المدني و مبارك الميللي و المصلح و السياسي و المجاهد محمد خير الدين ، و لقد تجمع هؤلاء و آخرون حول الشيخ /الرمز عبد الحميد بن باديس منذ سنة ١٩٢٥ .

و من المعروف أن الشيخ عبد الحميد ابن باديس قد أسس جريدة " المُنْتَقَد " التي تحولت فيما بعد إلى

"الشهاب" و من مدينة بسكرة أصدر الشيخ الطيب العقبي جريدة " الإصلاح " سنة ١٩٢٧، و لاحقا قرر الشيخ "الثوري" الإستقرار بالجزائر العاصمة، أين ساهم مع زملائه في تأسيس نادي الترقى، النادي الذي سوف يكون له دورا بارزا في نشر أفكار الإصلاح و التجديد الإسلامي، و البرهان الساطع على ذلك هو أن هذا النادي نفسه سوف يشهد ميلاد جمعية العلماء المسلمين الجزائريين.

و هكذا جاء تأسيس جمعية العلماء بعد أحداث تاريخية و التي اشرنا إليها في الإطار التاريخي/ و لكن ما نريد التأكيد عليه هو أن هذه الأحداث تركت بصمات قوية على فكر العلماء و خطابهم الديني و السياسي كما شكلت لهم مرجعية ثقافية سياسية و سوف تكون بمثابة بوصلة فكرية ليس فقط لمواقف و توجهات الجمعية، بل و لخط و مسار الحركة الوطنية الجزائرية من سنة ١٩٢٠ حتى سنة ١٩٥٤، لان الحركة الوطنية في هذه الحقبة التاريخية الحاسمة مرت و خاصة في عقد العشرينات و بداية الثلاثينيات حيث مرحلة التكوين و التبلور و وضوح المطالب.

و لسنا في حاجة إلى شرح كبير للقول بأن مطالب الحركة الوطنية بدا يأخذ مسارا أخرف نهاية عشرينيات القرن الماضي، فبعد أن كانت مطالب النخبة و الشبان الجزائريين، تدور حول الإدماج و المساواة بين الأهالي و المعمرين، بدأت الأصوات ترتفع تطالب بالاستقلال و تأسيس دولة وطنية و صاحب هذا المطلب الوحيد هو حزب نجم شمال إفريقيا.

خلاصة القول أن الأحداث التاريخية و اكتبها حركة فكرية و نهضة تعليمية و في نفس الوقت كانت الصحافة الوطنية المعربة تشق طريقها بخطوات بطيئة و لكن مضبوطة.

و من نافلة القول أن شيوخ الجمعية استفادوا من كل هذا الزخم الثقافي و الإعلامي و نهلوا من هذا المناخ الإصلاحي، و كان طبيعيا أن تكون وسائل اتصالهم مع فئات و شرائح المجتمع المختلفة، هي الكتابة و الخطابة و التعليم و بواسطة إنشاء الصحف و المدارس الحرة و لتعليم اللغة العربية و أداها و تحفيظ القرآن الكريم و تدريس علوم الدين لمواجهة مخططات الفرنسية و التغريب الثقافي و من هذا المنظور كان موقف العلماء من مسألة الدولة و الدين و هو ضرورة الفصل بينها أي طالبوا بفصل الدين الإسلامي عن الإدارة الكولونيالية و من هنا أيضا يأتي موقفهم السياسي من مسألة الإدماج، باعتبار أن الأولوية في تلك المرحلة هي للإصلاح و التربية و التعليم و لو تحت غطاء الإدارة الاستعمارية، بالرغم من اعتراف الشيخ عبد الحميد ابن باديس بوجود أمة جزائرية ولكن موقف الجمعية من الإدماج، إذ رفض العلماء التجنيس و إدماج رفضا قاطعا، و إن كان البعض يراه متناقضا و متذبذبا، لكن الأهم بالنسبة لنا آن جمعية العلماء المسلمين الجزائريين بزعامة الشيخ عبد الحميد بن باديس هي جزء لا يتجزأ من الحركة الوطنية و أفكارها و مواقفها يجب أن تقرأ في

السياق التاريخي الذي نشأت فيه، و مع الأخذ في الاعتبار خطاب الإصلاحية العربية الذي تردد صدهاء في الغرب الإسلامي و شمال إفريقيا(عبد الكريم بو الصفصاف، ١٩٩٦، ص ٣٥).

المصادر و المراجع

١. عبد القادر جغلول (1983) تاريخ الجزائر الحديث.دراسة سوسيولوجية، بيروت، دار الحداثة
٢. حسن عبد الرحمن سلوادي (١٩٨٤)عبد الحميد بن باديس مفسراً. الجزائر، المؤسسة الوطنية للكتاب .
٣. محمد خير الدين (١٩٩٠) مذكرات ج ١، الجزائر، المؤسسة الوطنية للكتاب .
٤. عبد الكريم يو الصفصاف(١٩٩٦) جمعية العلماء الجزائريين وعلاقتها بالحركات الجزائرية الأخرى.الجزائر.المؤسسة الوطنية للاتصال والنشر والاشهار .
٥. الهواري عدي (1983) الاستعمار الفرنسي في الجزائر.سياسة التفكيك الاقتصادي/الاجتماعي.١٨٣٠ - ١٩٦٠ بيروت: دار الحداثة .
٦. غليون برهان(١٩٩٠) إغتيال العقل.الجزائر. موقف للنشر .
٧. سعد الله أبو القاسم (١٩٨٦) الحركة الوطنية الجزائرية ١٩٣٠- ١٩٤٥ ج ٣. الجزائر. المؤسسة الوطنية للكتاب .
٨. سعد الله أبو القاسم(١٩٨٣) الحركة الوطنية الجزائرية .ج٢. ١٩٠٠-١٩٣٠ الجزائر الشركة الوطنية للنشر والتوزيع.
٩. جدعان فهمي (٢٠١٤) . أسس التقدم عند مفكري الإسلام في العالم العربي الحديث.بيروت ، الشبكة العربية للأبحاث و النشر.

١٠. وجيه كوثراني (١٩٩٦): الدولة والخلافة في الخطاب العربي إبان الثورة الكمالية، رشيد رضا-علي عبد الرازق- عبد الرحمن الشهبندر، دراسة ونصوص. بيروت دار الطليعة .
١١. عبد المالك مرتاض (١٩٨٣). نهضة الأدب العربي المعاصر في الجزائر ١٩٢٥-١٩٥٤ الجزائر الشركة الوطنية للنشر والتوزيع.

١٢. Tome Kaddache Mahfoud: histoire du nationalisme Algérien .

Alger 1entreprise nationale du livre

١٣. Addi lahouiri.(1990) l'impasse du populisme. Alger. 1entreprise nationale du livre.